

مرتكزات الوحدة الثقافية بين المسلمين في فكر الشيخ محمد الغزالي

إبراهيم نويري*

تمهيد:

يحاول هذا البحث الوقوف على آراء الشيخ الغزالي حول الجوانب الثقافية ووظائفها في الحضارة الإسلامية لتأسيس وصياغة مشروع الوحدة العامة والشاملة بين المسلمين وتحليلها، باعتبار أن الجهد الثقافي والفكري يمثل أساس عملية التغيير الاجتماعي، إذ أن إعداد أي مجتمع أو أمة لحمل رسالة حضارية معينة يقتضي أن يشمل في البدء إحداث التغيير والتجديد الضروريين في منظومة التصورات الثقافية والفكرية؛ وبهذا المعنى تتحول الثقافة إلى صياغة منهجية لأسس ومقومات بناء الأمة.

من هنا فإننا لن نكون مضطرين لأن نعود لتقصي الاشتقاقات والمفردات اللغوية لكلمة ثقافة، أو لأن نعرض على مراحل تطور هذه الكلمة، أو الوقوف عند التعريفات المختلفة التي وردت بشأنها، ومعنى ذلك أننا نروم المعنى العام للثقافة، ذلك المعنى الدال على إطار حياة واحدة يجمع بين راعي الغنم والعالم جمعاً توحد معه بينهما مقتضيات مشتركة¹. ولا شك أن الخصائص العامة التي تنتظم إطاراً واحداً يكون علامة على نوع معين من التفكير وأسلوب خاص في الحياة، ملحوظة في معظم الثقافات العريقة والحضارات الكبرى كما هو شائع ومنظور.

* ماجستير دعوة وإعلام من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.

¹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة (دمشق: دار الفكر، 1984م)، ص 77.

وبداهةً فإن الثقافة الإسلامية هي واحدة من تلك الثقافات العريقة التي تفاعلت مع الأوطر والمرجعيات الحضارية لثقافات مختلفة، بما تضمنته من قيم روحية وإنسانية مؤثرة وحساسة، وبما اتصفت به من خصائص وسمات متميزة أهلتها لأداء دورها الفاعل في صياغة المنجزات الحضارية المشتركة للإنسانية، فكانت بهذه المواصفات والقسمات الجامعة ثقافة خصبة وحيوية من جهة عمق قدراتها ومؤهلها الذاتية في صناعة الإنسان النموذج المسكون بروح المبادرة والفعل الحضاري، وبناء الأمم والجماعات والشعوب المؤهلة لنفع الإنسانية وبعث الحضارة الراشدة.. ومن باب أولى فإن العناصر والأبعاد المكونة لهذه الثقافة تشكل لحمة وسدى الوحدة بين المسلمين والصياغة الصلبة للكيان الحضاري الإسلامي.

أولاً: مرجعية وحدة التصور بين المسلمين عند الغزالي:

إن المقومات الثقافية لأية أمة ينبغي أن تستند في وجودها إلى مرجعية ضابطة ومهيمنة تتحكم في الحراك الذهني الفردي والجمعي، وتحدد الأطر العامة للتصورات الفكرية التي تنبع منها المفاهيم والسلوكيات والمواقف، وفي نظر الشيخ محمد الغزالي فإن هذه المرجعية بالنسبة للأمة الإسلامية تتمثل فيما يأتي:

أ - القرآن الكريم:

يؤمن الشيخ الغزالي - ككل المسلمين - بأن القرآن الكريم هو المنبع الأول للتلقي والاستمداد عند المسلمين، سواء تعلق الأمر بالعقيدة أو الشريعة أو الأخلاق أو المعاملات أو نحو ذلك، غير أنه يجعل من القرآن إطاراً عاماً يهيمن على كل شيء، ومعياراً ثابتاً يحاكم إلى قواعده ومقاييسه كل الأفعال والظواهر والمعارف والمواثيق؛ وتعليل الغزالي هنا ليس تعليلاً عقلياً محضاً، بل هو مستنبط من الدلالة العامة لمعنى أو مفهوم الدين الذي بعث لإنفاذه كل الأنبياء والرسول، فإن الوحي الإلهي في المسيرة الزمنية التي قطعها "قد انتهى إلى هذا الكتاب وأن ما بين دفتيه كلمة السماء إلى الأرض دون تحريف، وأن مراد الله من خلقه قد خلّد في هذه الصحائف فلا تعقيب لأحد بعده. وهذه الصفات لا يمكن البتة إضفاؤها على كتاب آخر... إن العالم كله لا يجوي في جنباته الآن إلا خطاباً واحداً من الله لعباده، هذا الخطاب هو الكلم المسطور في القرآن الكريم... والقرآن الكريم قد

تضمن جملة الحقائق التي تنادى بها موسى وعيسى عليهما السلام، وتنادى بها من قبلهم نوح وإبراهيم عليهما السلام... فلو أن أحدهم بُعثَ الآن حياً لرأى ملامح رسالته مصقولة في مرآة هذا الوحي الخاتم، وكان أول من يحتفي بها ويدعو لاعتناقها²؛ فالقرآن الكريم - في نظر الشيخ الغزالي - أساس حضارة إنسانية راشدة، ومبعث ثورة نفسية وعقلية شاملة نقلت تاريخ العالم كله من وضع إلى وضع ومن طور إلى طور؛ فالنهضة التي اقترنت بالقرآن الكريم وجدت أسباب الحياة والانبعث والازدهار في المناخ الذي نسجته تعاليمه ووصاياه وهداياته. ويمكن التأكيد بأن هذا الكتاب منح الوجود الإسلامي الأول أثناء فترة ميلاد الكيان الإسلامي من عناصر القوة والتحدي والتماسك الذاتي ما تعجز عن صنعه ألف وزارة للدعاية تجند آلاف الأقسام الواعية والألسنة الحادة لاستثارة العواطف وتنضيج الآراء وصقل العزائم؛ إن القرآن الكريم كان بالنسبة للحركة الإسلامية الأولى يمثل صحافتها وإذاعتها وكتابتها وخطاباتها، ومن هداياته العامة وحدها اهتزت الأجيال الهامدة اهتزاز الحياة، واستطاعت في وقت قصير أن تتخلص من أوهام الجاهلية الأولى، وما كان ذلك ليحدث. تمثل تلك المواصفات العجيبة لولا قوة القرآن وشدة سلطانه على النفوس والعقول والأفئدة³ من هنا رأينا الشيخ الغزالي يتجه بهذه المسألة اتجاهها تأصيلياً فيجعل من آيات القرآن إطاراً منهجياً ضابطاً لغيره من الأطر وحاكماً على موضوعاتها ومضامينها ومناهجها، ولعل ذلك ما يفسر شدة تعلق واهتمام الشيخ الغزالي بالدراسات القرآنية.*

ب - السنة النبوية المطهرة:

يعتقد الشيخ الغزالي أن السنة النبوية الشريفة هي المرجعية التي تلي القرآن من حيث الأهمية وضبط تصورات ومفاهيم العقل المسلم وتأسيس المنهجية الإسلامية، ومن ثم فإن ما صح عن رسول الله ﷺ لزم قبوله والاستدلال به على الأحكام كما هو الشأن بالنسبة للقرآن الكريم؛ ويرى الشيخ الغزالي أن الأحكام المتضمنة في الأحاديث الصحيحة إنما هي

² محمد الغزالي، هذا ديننا (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط2، 1385هـ/1965م)، ص195.

³ محمد الغزالي، نظرات في القرآن (باتنة/الجزائر: دار الشهاب، 1986م)، ص14-16.

* للشيخ عدة مؤلفات وجهود تتعلق بالقرآن وعلومه ودراساته، وهي: نظرات في القرآن الكريم، والمجاور الخمسة في القرآن، وكيف تتعامل مع القرآن، ونحو تفسير موضوعي، فضلاً عن المحاضرات العديدة والدروس المختلفة التي قدمها حول هذا الموضوع، والمقالات والخواطر المتعلقة بهذا الشأن والتي أودعها بعض مؤلفاته الأخرى.

مأخوذة أو مستنبطة من القرآن نفسه... أي أن النبي ﷺ هو الذي استنبطها بتأييد إلهي، وهذا الفهم أولاً الاستنباط يسمى في الاصطلاح القرآني "تبييناً" أو "إراءة" دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: 44)، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً﴾ (النساء: 105)؛ فالسنة المطهرة في فهم الشيخ الغزالي مستنبطة من روح القرآن الكريم الذي ثوى في سويداء قلب النبي ﷺ، غير أن هذا التشخيص لا ينطبق على عموم السنة، وإنما على الجانب الذي لا يُعدّ حياً مباشراً من الله تعالى. فقد كان القرآن الكريم هو الدعامة الأولى والمعيار المهيمن في حياة وواقع النبي ﷺ "استقرت آياته في سويداء قلبه، وامتدت معانيها وغاياتها في مشاعره وأفكاره، واستنار بأشعة الوحي باطنه كله، فهيهات أن يصدر عنه إلا ما يوافق القرآن ويسعى بين يدي هداياته المقررة؛ وحديث الرسول الكريم إلى الناس فيما يتصل بشؤون دينهم إذا لم يكن حياً مباشراً من الله، فهو مولد من حقائق القرآن التي أوحيت إليه، واختلطت بفؤاده وعقله، والتي ينبعث عنها ويوجه غيره إليها، ومن السداجة تصور النبوة ترديداً مجرداً لأخبار الملأ الأعلى، أو تصور الرسول ﷺ شخصاً لا يتكلم ولا يحكم ولا يفيت ولا ينصح إلا إذا همس في أذانه الملك بما يقول وبما يفعل... إن الرسالة أجل من ذلك وأخطر. والرسول ﷺ بعد أن أفعمت أقطار نفسه بهذا القرآن العظيم وتشربت روحه ما أودع فيه من هدي وخير أصبح - من ذاته - ينطق بالحكمة ويفسر القرآن، يفسره بألوف من الأقوال والأعمال والتقارير والإجابات التي نشأت عنه ونمت في حرارته وسناه".⁴

ونفهم من ذلك أن الشيخ الغزالي - وإن أبدع في التفريق بين السنة حين تكون حياً مباشراً من الله تعالى وحين تكون نضحا قرآنيًا - مع ما أجمعت عليه الأمة من عدّ السنة المرجعية الثانية في معيار النظر الإسلامي والمنهجية الإسلامية، فقد كتب تحت عنوان: السنة حق يقول: "والمسلمون متفقون على اتباع السنة بوصفها المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم، لكن السنن الواردة تتفاوت ثبوتاً ودلالة تفاوتاً لا محل هنا لذكره، وقد وضعت لضبط ذلك مقاييس عقلية جيدة، يرجع إليها في مظانها من شاء (...). وتكذيب السنة على طول الخط احتجاجاً بأن القرآن حوى كل شيء بدعة جسيمة الخطر، فإن الله

عز وجل ترك لرسوله السنن العملية يبينها ويوضحها، وقد ثبتت هذه بالتواتر الذي ثبت به القرآن فكيف تجحد؟ بل كيف تجحد وحدها ويعترف بالقرآن؟ وكيف نصلي ونصوم ونحج ونزكي ونقيم الحدود، وهذه كلها ما أدركت تفاصيلها إلا من السنة؟ إن إنكار المتواتر من السنن العمليّة خروج عن الإسلام⁵ ومن هنا اهتمّ الشيخ الغزالي بالسنة⁶ لهذه الدرجة التي تضعها ضمن سياق المرجعية الإسلامية الموجّهة للنظر المنهجيّ وصياغة المقاييس الحاكمة على الأشياء والأفكار والوقائع والظواهر.

ج- الاجتهاد أو مبدأ الحركة في الفكر الإسلاميّ:

يرى الشيخ الغزالي أن الاجتهاد أو مبدأ الحركة في الفكر الإسلاميّ - كما يسميه - هو ضميمة طبيعية لا بُدّ من وجودها، لأن هذا الإطار يمثل حلقة التفاعل بين العقل والنقل وتنزيل الأحكام والمعايير النقليّة على الواقع والأفعال والمستجدات، فأثر الفهم والتقدير الفكري والعقلي ملحوظ في كل هذه المراحل من أقسام هذه المعادلة، ومن جهة أخرى فإن هذه الحركة المستديمة في الفكر الإسلامي القائم على آلية القياس والموازنة بين الأشباه والنظائر ورد ما لا نعلم إلى ما نعلم... توضّحى وفقاً لهذا التحديد ضمانة منهجية وواقعية لخلود الشريعة الإسلامية وشموليّة وعالمية المذهبيّة الإسلامية⁷ وفي نظر الشيخ الغزالي فإن الاجتهاد بما يتضمنه من سمات اليسر والتسامح والحرية والتفاعل مع المبدأ والولاء للمنهج يمكن أن يشكل مساحة مهمة وفاعلة من المرجعية الإسلامية، وتعليل ذلك عنده أن الاجتهاد "كما يعبر عن حيوية

⁵ محمد الغزالي، ليس من الإسلام (القاهرة: مكتبة وهبة، ط6، 1411هـ/1991م)، ص38-39.

⁶ لا يعدّ الشيخ الغزالي من علماء الحديث بالمعنى الفني أو الاصطلاحي، لكن لكونه مفكراً وداعيةً وعالمًا إسلاميًا، فهو من أكثر المهتمين بهذا المجال، وله الكثير من الآراء والكتابات حول السنة ومناهجها، ومنها كتبه: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، وفي فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، وخلق المسلم، ومن كنوز السنة، فضلاً عن العديد من المقالات المثبوثة في بعض كتبه، منها خاصة: ترانسا الفكري في ميزان الشرع والعقل، وهموم داعية، وليس من الإسلام، ومستقبل الإسلام خارج أرضه، ودستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، وفقه السيرة، وكيف نفهم الإسلام.

⁷ المقصود بالمذهبية الإسلامية هنا "مرجعية" الإسلام، أي رؤيته الكلية للإنسان والكون والحياة والخالق العظيم (سبب الوجود).. وهي أيضاً منطلق الإسلام ومنهجه العام المستمد من أصوله وقواعده ومظاننه المعصومة. وللوقوف على شرح مسهب لهذا المصطلح يمكن مراجعة كتاب الدكتور محسن عبد الحميد: المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، وهو الكتاب السادس من سلسلة كتاب مجلة الأمة القطرية.

المسلم بإزاء الإسلام والحياة معاً، أو كما يعبر عن طاقة الملائمة التي يحملها المسلم ليوفق دوماً بين الحياة التي يعيشها الآن وبعد الآن، وبين الإسلام الذي يؤمن به ... يعبر من جانب آخر عن روح اليسر وروح الحرية في التفكير، وإن كانت حرية محدودة، فمبدأ الاجتهاد الذي يقوم عليه الفكر الإسلامي الأصيل، مبدأ بناء ومبدأ حركة ومبدأ حرية وبالتالي مبدأ تيسير، وفي الوقت نفسه مبدأ صفاء وتسامح"⁸.

ويظهر أن الشيخ الغزالي وفقاً لهذه التشخيص يعترف بكون حجّية الاجتهاد، إنما هي متضمنة في طبيعة العلاقة بين طرفي معادلة التكامل والتفاعل بين العقل والنقل، وأنه بهذا التأويل والتوجه ينحو منحى الشيخ الفقيه محمود شلتوت الذي يؤكد كون حجّية الرأي في التشريع أو التقييم ثابتة بالأدلة النقلية ذاتها لأنها تعود إلى عدة أمور منها: 1 - تقرير القرآن لمبدأ الشورى، 2 - وأمر القرآن برد المتنازع فيه إلى أولي الأمر؛ وهم الذين أوتوا الفهم والحكمة القدرة على الاستنباط، 3 - ثم ثبوت إقرار النبي ﷺ لأصحابه الذين كان يعينهم إلى الأقاليم والجهات النائية على الاجتهاد وإعمال العقل والأخذ بالرأي⁹.

وبهذا الفهم يصبح الاجتهاد مساحة إضافية مرنة تسهم في ترسيخ القسّمات المشتركة لوحدة الفكر والتصور عند المسلمين لأن هذه الأداة مشدودة في حركتها إلى فلك نصوص الوحي والأدلة المعصومة، إذ يرى الشيخ الغزالي أن "الرجل الذي يعيش في جوّ الوحي، خبيراً بحكمته وأحكامه، متأنقاً في تلاوته وتدبره، بصيراً بسياقاته ومغازيه، والذي يصحب رسول الله ﷺ في سيرته ويستبطن سنته من أقوال وأفعال، ويتأسى به في تقواه وعبادته وخلقه، هذا الرجل - ما دام يملك ذلكم القلب التقي والبصر القوي - يستطيع أن يصرف أحوال الحياة التي تلقاها تصريفاً يطبعها بطابع الدين، ويضفي عليها صبغة الحق، لأنه سيجتهد في إلحاقها بما علم من كتاب الله وسنة رسوله، وفي ردها إلى ما وعى من بواعث الإسلام وأهدافه.. والسير في الحياة بهذه النية... والأمة مطالبة بالتزام هذا الصراط فيما تفد به العصور من أحداث"¹⁰.

هذا هو الإطار المرجعي الضابط لمنهجية الفكر والتصور عند المسلمين في منظور الشيخ الغزالي، ويمكن الاستدلال على مشروعية هذا الإطار المنهجي بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

⁸ المصدر السابق، ص 146-147.

⁹ محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة (القاهرة/بيروت: دار الشروق، ط 10، 1400هـ/1980م)، ص 543.

¹⁰ محمد الغزالي، هذا ديننا، مرجع سابق، ص 204-205.

وأهدافها الكبرى في الحياة؛ وبالنسبة لنا نحن المسلمين فإن الثقافة الذاتية تتمثل لدينا بشكل أساس في العلوم الإسلامية بشتى تخصصاتها ومعارفها وفروعها ومناهجها، ولما كانت هذه الثقافة تمثل روح الأمة وشخصيتها الفكرية والحضارية فإن القوى الاستعمارية والتنصيرية والتهويدية والإلحادية ونحوها عملت ومازالت وبدأب حثيث على هدم مؤسسات ومعالم وقسمات هذه الثقافة، وإضعاف وتحييد آثارها العملية على صعيد صياغة الشخصية الإسلامية، وصعيد التأسيس الاجتماعي والبناء الثقافي وتجديد أمل الانبعاث الحضاري لأمتنا ومشروعها الإنساني والإعماري الخير.

ويدرك الشيخ الغزالي أهمية هذه القوى الدافعة في كيان الأمة والتي تنشعها هذه الثقافة فيقول: "إن هذه الثقافة الذاتية هي إكسير الحياة للأمة والمجدد الدائب لطاقتها الأدبية والمادية".¹¹

وصفوة القول هنا - كما يظهر لنا - أن الشيخ الغزالي ممن يعولون على أهمية الثقافة الذاتية في تماسك الخصائص المشتركة لهوية المسلمين الفكرية والحضارية. ومن ثم فهو يدعو عبر الكثير من كتاباته وأحاديثه إلى ضرورة اعتناء كل المسلمين بهذه الثقافة وتأسيس معاهدها وتقريب الناشئة وطلب العلم والمعرفة من منابها ورجالاتها، ويرى أن ذلك واجب ديني يفرضه علينا ولاؤنا لرسالتنا، كما تحتمه سنن التدافع بين الحضارات والأديان والمذاهب، فضلاً عن كونه ضرورة واقعية ملزمة لحماية وصون قسمات ومميزات هوية أمتنا وشخصيتها الحضارية.

إن الثقافة الذاتية - وفقاً لهذا التشخيص - تمثل الدرع الواقي والسياج الحافظ لخصائص الأمة، كما تمثل قوة دفع حقيقية لعوامل الغزو، ومحاولات التبديل الثقافي والفكري والوجداني التي تبذل على مختلف الأصعدة للانحراف بالتوجه الحضاري الفطري لأمتنا الإسلامية، وما ذلك إلا لكون هذه الثقافة ترمز بأبعادها ومضامينها الوظيفية إلى وحدة هذه الأمة في مزاجها الفكري والنفسي المشترك، وإلى عمق انجذاب أمتنا الفطري إلى روح أصالتها وقوة انسجامها الطبيعي مع تجلياتها المذهبية والحضارية.*

11 محمد الغزالي، علل وأدوية (باتنة/الجزائر: دار الشهاب للطباعة والنشر، ط2، 1986م)، ص168-169.

* أقصد بالتجليات المذهبية والحضارية في هذا السياق عطاءات الفكر الإسلامي وثمار الحضارة الإسلامية العامرة بالإيمان والعدل، ولا شك أن الثقافة الذاتية لها دورها الحاسم في استبقاء انتفاع الأمة بزخم هذه العطاءات والثمار، بل إنه لا بقاء لهوية أمتنا الحضارية دون هذه الثقافة!

على الرغم من اختلاف الألسنة والعادات والظروف الاجتماعية والبيئات الجغرافية ونحو ذلك من التغيرات الفطرية والطبيعية، وبعض الدراسات المتخصصة تشير إلى أن أواصر القربى ووشائج المناصرة والالتحام والدعم تزداد قوة ومتانة وفعالية بين المسلمين كلما ازداد جهاز الدعوة نشاطاً وكلما ازداد الدعاة خيرةً ومهارةً وكفاءةً بأساليب نشر نور هذه الرسالة وهداياتها في شتى آفاق المعمورة؛ ومعنى ذلك أو ما يستفاد من هذا الاستنتاج أنه يجب على المسلمين في كل مرحلة وفي أي منعطف من تاريخهم أن يجددوا أشكال ومواتيقي التحامهم برسالتهم العالمية وأن يعملوا جاهدين مخلصين لإقامة المجتمع الإسلامي بوصفه نموذجاً يسير في الحياة وفقاً لمقتضيات هذه الرسالة ووفاءً وخدمة لشؤونها وقضاياها، فهي من مقومات وحدتهم وانسجام خصائصهم الحضارية وشخصياتهم الفكرية.

ومن منظور الشيخ الغزالي أن الرسالة العالمية للمسلمين لن تتبلور صورة فعاليتها على صعيد التوحيد العاطفي والثقافي بين المسلمين إلا إذا كانت العلاقة بين الأمة والرسالة في المستوى الذي أراده الله تعالى وبين تبعاته في محكم التنزيل، وفي ذلك يقول الشيخ الغزالي: "الإسلام أمة ورسالة.. أما الرسالة فهي الهدى الإلهي الذي يخطط لنا الصراط المستقيم ويدعونا إلى السير فيه، وأما الأمة فهي الجماعة التي تنقل التوجيه الإلهي من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق، أي تفهم الوحي وتنفذه وتدعو الآخرين إلى اعتناقه"¹³.

ويدلل الشيخ الغزالي على كون هذه الوظيفة المشتركة بين أبناء وشعوب الأمة الإسلامية، هي من دعوات الشعور الواحد في الأمة، ومن أسباب المناعة الذاتية داخل كيان ومؤسسات الأمة بمثلين من التاريخ الإسلامي: الأول عندما سقطت الخلافة العباسية وتهافت صروح دولتها تحت مطارق التتار، فسرعان ما استيقظت أسباب المناعة الكامنة في العمق الحضاري من كيان الأمة، وتحرك جهاز الدعوة بسرعة وفعالية حتى وقع حدث من أعجب الأحداث في تاريخ الدنيا، فقد أسلم غزاة التتار بعد تحقيقهم الانتصار العسكري، ونجح جهاز الدعوة في استيعابهم بينما فشلت الأجهزة الرسمية للكنيسة في اجتذابهم إلى دائرتها وعاد المندوب البابوي إلى روما منكسر الخاطر يجر أذيال الفشل ومرارة الهزيمة؛ والمثل الثاني عندما اشتبكت الأمة الإسلامية مع صليبي العصور الوسطى

ومناحي الفلسفة، وفي أرجاء حضارتنا التي نملأ أفواهنا بها فخراً... لقد كنت في مكة أرى أغلب الملامح البشرية حول البيت العتيق، ونظرت يوماً إلى مئات المساجد في القاهرة - عاصمة العروبة والإسلام - فرأيت جل بناتها من الأعاجم. معادنهم الأولى. وغلغلت البصر في موارثنا النقليّة والعقليّة فرأيت سدنتها من أولئك الرجال الذين دخلوا العروبة من أبواب الإسلام، وجعلوا العروبة بهذا المدخل الكريم ملتقى سامياً لأنضر ما عرفت الحياة من جهد وأشرف ما وعت من غاية"؛¹⁵ ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن هذه الخاصية أو الدعامة الموحدة للأمة الإسلاميّة في المشارق والمغرب هي من الأسباب الرئيسيّة التي أوغرت صدر قوى الاحتلال الحاقد على الإسلام، وجعلتها تعمل على تفتيت أرجائه وتمزيق وحدته، لأن تلك القوى لا تعرف مثل هذه الروابط والخصائص، فما يجمع بينها إنما هو المصلحة الجشعة والتطاول على الإسلام فحسب.

3 - تحديد علاقة العرب بغيرهم من المسلمين: يعتقد كل علماء الإسلام المحققين بحقيقة كون الإسلام هو الذي رفع شأن العرب وعرف بهم أمم المعمورة، باصطفاء الله تعالى للنبي الخاتم ﷺ من بين ظهرانيهم، وتخليد لسانهم في كتابه المعجز الخالد، حتى غدا اللسان العربي جزءاً من الوحي وديناً مع الدين* الذي لا يقبل الله سواه... والشيخ الغزالي ممن يرون هذا الرأي من علماء الأمة ومفكريها، وممن يؤمنون به أشد ما يكون الإيمان وأرسخه، وفي ذلك نراه يقول: "العرب - بالإسلام وحده - دخلوا التاريخ وعرفتهم القارات المعمورة ولولا الإسلام ما جاوزوا جزيرتهم، لوما كان لديهم شيء يقدمونه للناس! ففضل الإسلام على العرب لا ينكره إلاّ أفك جريء".¹⁶

لكن حديث الشيخ الغزالي عن حقيقة فضل الإسلام على العرب وثقافتهم لا يعني بالمقابل غمط حق العرب، فهو من المفكرين الإسلاميين الذين صاغوا ما يصح أن يطلق

15 محمد الغزالي، حقيقة القوميّة العربيّة (القاهرة: مكتبة دار العروبة، د. ت)، ص 111، 112، 113.
* توجد كثير من الآثار والمرويات تشير إلى تلازم الإسلام واللغة العربية وفضل الوحي الخاتم على العربية، فقد كتب علي بن أبي طالب إلى أبي موسى الأشعري يقول: "أما بعد فتفقهاوا في السنة وتفقهوا في العربية أعربوا القرآن فإنه عربي، وتعلموا العربية فإنها من دينكم"، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً يتنا، وإن اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بالعربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"... إلخ.

16 محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه (الجزائر: دار الكتب، 1987م)، ص 94، 95، 98.

سلبية مؤثرة في وحدة الكيان الإسلامي، ولعل الشيخ الغزالي بهذا الفهم قد استشف العبرة من بعض مراحل التاريخ الإسلامي، والتي منها ظهور الحركة الشعبيّة في القديم، وبروز بعض الاتجاهات المنحرفة للقوميّة العربيّة في العصر الحديث، ومن هنا فإن الشيخ الغزالي ولتجنب هذه المحاذير التي حدثت فعلاً في تاريخ الأمة وأساءت يقينا لوحدها الشعوريّة والفكريّة يصرح بأن القيام بهذا الواجب المقدس إنما هو عام ومعلق بذمة الأمة كلها، حيث يقول في صيغة تساؤل احتجاجي: "أريد أن أسأل العرب - وهم أمّتي الكبرى وعشيرتي الأقربون - هل درسوا علاقتهم بالعالم الإسلاميّ خلال هذا القرن، أو خلال القرون الماضيّة؟ إن هذه الدراسة مطلوبة وإن الغفلة عن عبرها جريمة دينيّة وتاريخيّة ضخمة، إن هذه الدراسة ليست عمل الساسة والحكام، بل هي شغل الدعاة والفقهاء والأدباء، وتكاد تكون في هذا العصر فريضة كذلك على الاجتماعيين والاقتصاديين.. لقد أفزعني أن هناك نزعة مجنونة تشغل العرب بقضاياهم الخاصة وتصرفهم عن مشكلات العالم الإسلاميّ الواسع وتحبس التفكير والاهتمام فيما يمس المصلحة العربيّة وحدها، أما ما وراء ذلك فلاشتغال به من فضول البحث أو لغو الكلام، وظهرت هذه النزعة دميمة الوجه محقورة الفكر عندما أغارت الشيوعيّة على أفغانستان المسلمة، فإن دولاً وجماعات عربيّة رأت أن هذه الغارة لا تقلق الضمير!! ولا ينبغي أن تشغلنا عن قضية فلسطين مثلاً... الحق أن هذا الموقف يجعلني أميط اللثام عن خيانات فاجرة اقترفها عرب كثيرون ضد الإسلام وضد المنتمين إليه في شتى القارات فإن السكوت عن ذلك طعنة نافذة تصيب الإسلام في يومه وغده وتهدد أمتنا الإسلاميّة الكبرى بأفدح التمزق والخسران".¹⁸

ويرى الشيخ الغزالي أن من واجبات العرب الحضاريّة إزاء إخوان العقيدة والمصير القيام بمجهود خاص لخدمة لغة الوحي، لكن الشيخ الغزالي لا يعتقد بأن الإسلام جاء لتعريب الشعوب التي تعتنقه فهو رسالة هدايات عامة قبل كل شيء، غير أن القيام بواجب تيسير هذه الهدايات قد يتطلب شيئاً من المعرفة بالعربيّة، خاصة أنه ثبت بالتجربة أن اللغة العربيّة هي الوسيلة المثلى لاستيعاب الإسلام وفهمه فهماً صحيحاً، فالقرآن عربيّ والسنة عربيّة والفقّه عربيّ.. يضاف إلى ذلك أن اللغة العربيّة بما تحدّثه من مؤثرات في الوجدان والفكر والتصور تعدّ - من هذه الزاوية - من أهم عناصر التوحيد الثقافيّ بين المسلمين، فقد ثبت

التكاملة للوحدة بين المسلمين على أسس ومرتكزات فاعلة قويّة وبعيدة عن شتى الحساسيات السياسيّة والمذهبيّة التي أساءت تاريخياً لهذه الرابطة.

4- العمل بمبدأ التقريب المذهبي وتجميد الخلافات: يقدم الشيخ الغزالي رؤية في الموضوع بالغة الأهمية خاصة في صلتها بأركان الفقه الحضاريّ وفلسفة الوحدة والتوحيد والتضامن بين المسلمين؛ إن مذاهب الفقه الإسلاميّ - كما يرى الشيخ الغزالي - على الرغم من أنها وضعت أساساً لغرض التيسير على المكلفين وإدراك مراد الله تعالى بسهولة من أفعالهم، وفهم بعض المقاصد والحكم من التكليف، بيد أن الكثير من العقول الكليّة والنفوس المعتلة استطاعت تحويل هذا الموضوع عن مداره الطبيعي ونهجه العتيّد محدثة بذلك جانباً من الانحراف بالطبيعة الخصائص التجميعيّة للثقافة الإسلاميّة، وذلك بتصورها المغلوط وفهمها للرأي الفقهيّ على أساس أنه وجهة نظر الدين الوحيدة والأخيرة، والتشبث بهذا المنظور كان له آثاره وعواقبه الوخيمة على وحدة المسلمين الفكرية والثقافية؛ فكلمة مذهب - برأي الشيخ الغزالي - لا تعني إلاّ وجهة نظر فقيه ما في فهم النصّ السماويّ.. ووجهة النظر هذه - من ثمة - لا عصمة لها ولا قداسة لأنها محاولة تفكير بشريّ لفهم الوحي الإلهيّ أو النصّ المعصوم... فالتحويل من جهة الأصل على الوحي والكرامة في الانتماء إليه والتلقي عنه وحده. 21

فالشيخ الغزالي ينظر إلى الخلاف الفقهيّ من زاوية أنه تباين طبعي في وجهات النظر اقتضته طبيعة العلاقة بين العقل والنقل فضلاً عن بقية العوامل الموضوعيّة الأخرى كالدلالات الظنيّة للنص ووجود كلمات في العربيّة تفيد الشيء وضده والتقدير المتباينة بين الفقهاء في شروط الاستدلال بأحاديث الآحاد.. إلخ.

وعليه فإن هذا الخلاف قد يكون مصدر ثراء فكريّ وتشريعيّ يدعّم رصيد العقل الإسلاميّ العلميّ والمعرفيّ، إذا كان ناشئاً عن تجرّد وإخلاص وروح اجتهاديّة مبدعة بعيداً عن أمراض القلوب وعلل النفوس وأهواء الدنيا؛ ووفقاً لهذا التشخيص الفكريّ لهذه القضية فإن الخلاف الفقهيّ يستحيل أن يكون معصية، وإنما يكون معصية إذا كانت بواعثه مضادة للطبيعة الموضوعيّة التي أوجدته في الواقع، وقد سارع الشيخ الغزالي إلى التصريح بذلك بعد تحقيقه العلميّ في خلفيات هذه المسألة، وعلاقتها - خاصّة في حالة

الغزالي وقدم رؤية في الموضوع نحسب أنها موضع احترام وتقدير كل المذاهب والاتجاهات الإسلامية، وقد شملت هذه الرؤية العلاقة بين السنة والشيعة وشتى مدارس ومشارب الفقه الإسلامي، ومن الأغراض والمقاصد التي تهدف إليها هذه الرؤية تخفيف مواطن الخلاف بين المسلمين خاصة بعد أن أوهن الزمن دواعيها وتحميد بعضها الآخر الذي ما يزال يبعث على الجدل، لفسح هذا الأفق أمام جهود تجميع هذه الأمة وتكثفها كي تستكمل شروط مجابته للتحديات الضخمة والخطيرة التي تتهدد كل مقوماتها. بما في ذلك وجودها ذاته، ولعل ما يدعم هذه الرؤية أكثر أن قوى الاحتلال العالمي باتت يستفزها بعنف أمر استرجاع الشعوب الإسلامية لهويتها التاريخية والفكرية وتناغمها مع مقومات وخصائص شخصيتها الحضارية ذات المضمون الإسلامي؛ لهذه الأسباب جاء جهاد الشيخ الغزالي على هذا الصعيد مفعماً بالتوتر والإشفاق على حاضر ومستقبل هذه الأمة، وكان من أشد الأمور تأثيراً في نفسه وأنكرها إلى قلبه وضميره "افتعال الأسباب لتفريق الكلمة وتمزيق الأمة.. ربما اختلفت وجهات الأنظار كيف يستبيح بعضنا لأنفسهم أن يخلقوا الفرقة خلقاً وأن يقحموها على الواقع إقحاماً، لا لشيء إلا لرؤية الناس أحزاباً متناحرة وطوائف متدبرة. إنني آسف لأن بعض من يرسلون الكلام على عواهنه، لا بل بعض من يسوقون التهم جزافاً غير مبالين بعواقبها دخلوا في ميدان الفكر الإسلامي بهذه الأخلاق المعلولة فأساءوا إلى الإسلام وأمتة شر إساءة.. سمعت واحداً من هؤلاء يقول في مجلس علم: إن للشيعة قرآناً آخر يزيد وينقص عن قرآننا المعروف،* فقلت له: أين هذا القرآن؟ إن العالم الإسلامي الذي امتدت رقعته في ثلاث قارات ظل من بعثة محمد ﷺ إلى يومنا هذا بعد أن سلخ من عمر الزمن أربعة عشر قرناً لا يعرف إلا مصحفاً واحداً مضبوط البداية والنهاية معدود السور والآيات والألفاظ، فأين هذا القرآن الآخر؟ ولماذا لم يطلع الإنس والجن على نسخة منه خلال هذا الدهر الطويل؟ لماذا يساق هذا الافتراء؟! ولحساب من تفتعل هذه الإشاعات وتلقى بين الأغرار ليسوء ظنهم بإخوانهم وقد يسوء

* أميل إلى أن الشيخ الغزالي على علم تام بما قيل في بعض كتب الشيعة عن وجود (قرآن آخر) غير الذي يعرفه كل المسلمين، مثل الكلام الذي ورد في كتاب فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، للطبرسي النجفي (ت1320هـ)، خاصة أنه من العلماء المسلمين الذي أسهموا في جهود التقريب أيام الشيخ الفقيه محمود شلتوت رحمه الله، ولكنه يدرك أن الغلو يدفع إلى العجائب، وأن العبرة بالمعتمد المشهور، فإن أدبيات الغلو والهوس الديني هي التي اعتمدها المستشرقون وأعداء الإسلام لا يغار صدور المسلمين وتعميق الجفوة وروح البغضاء والعداء بين طوائفهم ومذاهبهم. فلنكن جميعاً على حذر وبقطة ونباهة.

الدين في قليل ولا كثير، والذين يحرصون على ذلك ليسوا من الله في شيء".²⁴ وعلى الرغم من أن الشيخ الغزالي وهو يعالج قضية التقريب المذهبي في المنظومة الإسلامية الفقهية والنظرية، يذكر بعض الأحداث والمعطيات الدولية، غير أن من يعمق النظر بعمق حول فكره يجد أن إشارته لمسألة إعادة ترتيب المكونات الرئيسة لأنساق الفكر والثقافة عند المسلمين وجعلها خادمة في سيروتها وتطوراتها وتجدداتها لوحدة المسلمين وتكثلمهم وعزتهم، من ثوابت وخصائص مشروع الشيخ الغزالي الفكري، وعليه فإن المعطيات الدولية وإن لم يتغافل عنها الشيخ، لا تمثل منطلقات أو بواعث مركزية لموقفه واجتهاداته في مجال التقريب المذهبي وضرورة السعي وبذل الجهد لردم أسباب الفتنة بين المسلمين في مظانها التاريخية فيقول رحمه الله تعالى: "منذ ربع قرن عرفت قضية التقريب بين المذاهب الإسلامية ونصرتها بقلبي وعقلي جميعاً، وقلت: إن اليهود والنصارى طورا مسافة الخلف بينهم وتجمعوا علينا، واغتصبوا أرض فلسطين، وهم الآن يعدون لجعل المسجد الأقصى هيكل سليمان، ومحو شارات الإسلام في تلك الأرضين كلها.. هل الخلاف بين أهل السنة والشيعة أعظم من الخلاف بين اليهود والنصارى؟ هل يتعاون هؤلاء وأولئك في الهجوم علينا ونفشل نحن في الدفاع عن أنفسنا والتساند لرد المعتدين؟ من أجل ذلك أيدت قضية التقريب واقترحت لها أسساً فقهية وعلمية، وما فهمت ولا فهم غيري من رجال الشيعة أن التقريب تذويب للفوارق المذهبية وإدماج لهذا في ذلك".²⁵

وقد لاحظ الشيخ الغزالي بهذا الصدد حجم المآسي التي يخلفها سرطان الاختلاف في واقع المسلمين ويعطي مثلاً على ذلك بالمسلمين الهنود، فهم بعد معاناه أليمة نجحوا في تكوين دولة باكستان إلا أن القضايا المذهبية والخلافات التافهة التي لا معنى لها بددت قواهم وأضعفت هذا الكيان من الداخل منذ البدايات الأولى لميلاده، وقد قرأ الشيخ الغزالي ما كتبه بعض الفقهاء في عصره عن مآسي الخلافات الفقهية والمذهبية، ومنهم الشيخ عبد الجليل عيسى، وخاصة كتابه ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين، وتأثر بما قرأ فانتبه إلى كون الخلاف بين الأحزاب في الدول الغربية لا

24 محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين (القاهرة: دار النهضة، ط5، 1996م)،

ص207-208.

25 محمد الغزالي، علل وأدوية، مرجع سابق، ص263-274.

ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن الأخطاء التاريخية السابقة التي ارتكبها المسلمون وكان لها تأثير سلبي على وحدة جماعتهم وانسجام صفهم لا يجوز أن تستمر أو أن يبقى لها أثر في واقعهم الراهن، ولاحظ أن الصليبيين حين دخلوا الأندلس فإنهم لم ينشروا سوى الكتلكة، بينما حين دخل المسلمون الشرق الأوسط فإن طرائقهم ومذاهبهم ما تزال إلى اليوم تكون (عصبة أمم)!! وإذا كان الشيخ يعزو ذلك إلى طبيعة الإسلام المتميزة في السماحة ونبد التعصب، فإنه لا يستطيع بحال تحويل هذه الروح وهذه الطبيعة إلى فتوق وفتورات تأذن للخيانات والانحرافات أن تنال من وحدة الجماعة المسلمة وتهدد وجودها أو تبعثر العقائيل والعوائق في طريقها،²⁹ ومن ثمة فإن الشيخ الغزالي يضع هذه المبادئ في صورة مقترحات قد تدفع إلى طريق التصالح والإخاء والتناصر بين الفريقين:³⁰

أ - يتفق الفريقان في مؤتمر جامع على أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصون الخالد، والمصدر الأول للتشريع وأن الله حفظه من الزيادة والنقص ومن كل أنواع التحريف، وأن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي ﷺ على أصحابه، وأنه ليس هناك في تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف.

ب - السنة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، والرسول ﷺ أسوة لأتباعه حتى قيام الساعة، والاختلاف في ثبوت سنة ما أو عدم ثبوتها مسألة فرعية.

ج - ما وقع من خلاف بين المسلمين في القرن الأول يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، بل يُجمد - من الناحية العلمية - تجميداً تاماً ويترك حسابه إلى الله وفق الآية الكريمة: ﴿تَلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 134).

د - يواجه المسلمون جميعاً مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة، وهي كثيرة جداً ومكرونة وتسامح في شتى الفروع الفقهية ووجهات النظر المنهية الأخرى. ثم نرى الشيخ الغزالي يصرح بأن له إخوة وأصدقاء من الشيعة يعزهم ويحبهم، ويعترف بأن الذي أضرى أو قوى الخلافات بين الفريقين مطالب الحكم وبعض المنازع

29 محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية، مرجع سابق، ص 158.

30 المصدر نفسه، ص 159-160، والفريقان هنا - كما هو واضح من سياق الحديث - أهل السنة والشيعة.

صورة صحيحة عنها وتعليم اللغات الإسلامية في الجامعات وترجمة الآثار والرجال لعرف المسلمون أنفسهم وعلّموا قوتهم ومقدرتهم وأنهم مسلمون قبل كل شيء، مسلمون في كتاباتهم وتأليفهم، مسلمون في قصصهم وأشعارهم.. لا بُدُّ أن يلتقي المسلمون بعضهم البعض الآخر، وهل ينكر أحد أن خير اللقاء هو اللقاء عند الثقافة البعيدة عن كل تعصّب أعمى؟ (...). وإذا كان هذا شأن الآداب لدى المسلمين، فأسهل منه شأن الفقه وعلوم الدين وتراث العلماء كلهم من أي مذهب من المذاهب الإسلامية، فقد استمدوا علومهم من الكتاب والسنة ومن اللغة العربية التي هي لغة الدين، وبما أن المصدر واحد واللغة واحدة، فإن أقل تبادل ثقافي يكفي لأن تحترم كل طائفة ما عند الأخرى".³³

ويمكننا هنا تسجيل أنه من العسير جداً فصل تفكير الشيخ الغزالي في قضايا التقريب المذهبيِّ ومحاولة بلورة رؤية منهجية لتوحيد المسلمين عن تأثيره الواضح في ذلك بفكر الإمام حسن البنا، فهو يذكر في مقدمة كتابه دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين أن صاحب موضوع هذا الكتاب وملهمه هو مجدد القرن الرابع عشر الهجري الإمام حسن البنا،³⁴ ومن ثمة فإننا نراه يقتبس من الأصول العشرين لهذا الإمام المجدد ما يخدم هذه الغاية العظمى، ومن ذلك قوله في الأصل السادس: "كل أحد يُؤخذ من كلامه ويترك إلاّ المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه وإلاّ فكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أولى بالاتباع، ولكننا لا نعرض للأشخاص فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا"، وقوله في الأصل الثامن: "الخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً في التفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة أو بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجرّ ذلك إلى المراء المذموم أو التعصّب".³⁵

ويصل الشيخ الغزالي في تحليله إلى ثمرة جوهرية وهي أن التنوع في الرأي والخلاف المذهبيِّ إنما شرفه الأوحده في انتمائه إلى الله ورسوله، فإذا حدث أن هت هذه الصلة

33 محمد الغزالي، ظلام من الغرب، مرجع سابق، ص 273.

34 محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية، مرجع سابق، ص 7.

35 المصدر نفسه، ص 160-161. ولزيادة التوسع في ذلك تراجع رسالة التعاليم، مجموعة رسائل الإمام الشهيد

حسن البنا (باتنة/الجزائر: دار الشهاب، د. ت)، ص 353-370.

منابعنا الثقافية حتى تروّج أقوال الأئمة والعباقرة وأهل الفكر، وتستخفي أقوال المعلولين وأذنان السلطات وأشباه العوام".³⁷

إن عملية المراجعة المطلوبة كما يفهم من تفكير الشيخ الغزالي لا تعني مجرد القيام بجهد علمي يستهدف غربة تراث هذه الأمة من الأوضار والشوائب التي تسربت للكثير من مظانها أثناء بعض مراحل الغفلة والانحطاط، أو خلال منعطفات استقالة العقل المسلم عن الإسهام المبدع والحركة الخلاّقة، وإنما تعني إلى جانب ذلك كيفية وأسلوب إيجاد منهج يحسن استغلال توظيف الخصائص الحيّة الفاعلة في هذا التراث باتجاه توحيد الأمة والتمكن الصحيح من وضع جمل قواها وطاقاتها - بعيداً عن أي استنزاف داخلي قد تبعث دواعيه وتتقوى أسبابه جراء الاشتغال بالخلافات الموروثة وسفاسف الأمور - في بؤرة خدمة إقلاعها الحضاري واستنهاضها الحقيقي النابع من خصوصياتها الذاتية، والمواكب في الوقت نفسه لشروط المرحلة ومتطلبات العصر ومقتضيات التغيير الإنساني والزماني والمكاني؛ ويظهر لي في غمرة هذا التحليل "أن الأمر كله اليوم متوقف على مدى فعالية ما يبذل من جهد في هذا الاتجاه، وكذلك على مدى الإحساس الثقافي والنفسي بخطورة التفتت والتجزئة.. أما العالم الإسلامي بوصفه مجموعاً واحداً فلا بُد أن يدرك أنه إن لم ينتهج طريق الوحدة والتكامل فإنه سيستمر في التآكل والتفتت"³⁸ فإذا تم الربط على هذا النحو بين مشروع مراجعة المنتج الفكري والثقافي وبين مطمح وهدف رصّ صفوف الأمة وتجميع أجنحتها حول كيائها العتيد، فإن تقديرنا واحتفاءنا بهذه المراجعة - لا ريب - سيتضاعف، ولعل إدراك الشيخ الغزالي لأبعاد هذه المعادلة وأثرها في رهانات نهضة أمتنا وإمكانات تخطيها عقابيل ومشكلات واقعها المعاصر، جعله يستصرخ الهمم وأولي الغيرة والمقدرة والبصيرة من أجل تأسيس "جهاز" فكري للمسلمين يحسب أرباح الأمة وخسائرها مع سير القرون واطراد الزمان، ويشخص العلل، ويقوم برصد التجارب ومواطن النجاح والتألق في كل مكان، سعياً لعلاج الخلل الداخلي وسداً للثغرات الطارئة³⁹ بل جعله يعتقد في جزم بأن العالم الإسلامي الآن "أشبه ما يكون بشخص

37 محمد الغزالي، *علل وأدوية*، مرجع سابق، ص 217-218.

38 إبراهيم نويري، "خواطر في الوحدة الإسلامية"، مجلة الحرس الوطني السعودية، العدد 132، صفر 1414هـ/ أغسطس 1993م، ص 30.

39 محمد الغزالي، *ركائز الإيمان بين العقل والقلب* (الجزائر: مكتبة رحاب، 1408هـ/1988م)، ص 8.

يهتموا بدور الثقافة في إبراء الأكمه والأبرص".⁴¹ ومن جهة أخرى فإن عملية إحضار تراث هذه الأمة الفكري للقراءة النقدية الفاحصة وتنقية مظانها ومصادرها الكبرى من الزوائد والأضرار الدخيلة ينبغي أن يتصدى لها متخصصون مخلصون في الانتماء الحضاري لهذه الأمة وهوية فكرها وثقافتها.

ويُعدّ الشيخ الغزالي من أوائل المفكرين الإسلاميين في هذا القرن الذين تنادوا بهذه الدعوة في نطاق الحركة الشاملة للإحياء الثقافي، وجعل الوحدة بين المسلمين من الأهداف الرئيسة الثابتة لمسار الثقافة الإسلامية في أي مرحلة من مراحل حركتنا الزمنية، ويظهر أن هذه الدعوة باتت مطلباً ملحاً في نتاج العقل الإسلامي المعاصر الثقافي والمعرفي واهتماماته ذات الأولوية البالغة، وإذا كان التراث هو أحد أهم جوانب هذه الحركة، فإن البعض يؤكد بأن عملية تيسيره وتقريبه للأجيال المعاصرة ليست سهلة - خاصة في هذه المرحلة - "فإن احتمال التحريف المعتمد للقيم التراثية يُعدّ من أبرز الأخطار التي اقتزنت بما تم في هذا المجال، بسبب الغزو الثقافي الذي تعرضت له أرض الحضارة الإسلامية، والذي أدى إلى إحلال قيم ثقافية جديدة تتصل بالحضارة الغربية ولا تركز إطلاقاً على جذورنا الثقافية. إن التيسير المطلوب والتوطئة المقصودة تحتاج إلى أقلام تؤمن بعقيدة الأمة الإسلامية، وتقرّ بجدوى تجديد روح الأمة وقيمها بالارتكاز على جذورها الحضارية والثقافية، ومن دون ذلك لن يكون التيسير إلاّ تشويهاً منظماً وتخريباً مقصوداً، ولن يثمر في تعميق الوحدة الثقافية للأمة بل سيزيد في الفصام ويقوي التشتت والإحساس بالضياع وفقدان الهوية".⁴²

6 - صياغة منهج معرفي جديد لفهم التاريخ الإسلامي والاعتبار بأحداثه: من الثابت أن مؤرخي المسلمين قد ركزوا على تدوين التاريخ السياسي على حساب تاريخ العلم والفكر والاجتماع الإسلامي، فكان لا بُدّ أن تكون الثقافة التاريخية السائدة بين الأجيال الإسلامية المختلفة عامل افتراق وتشتت وإيغار للصدور والنفوس، بدلاً من أن تكون ركيزة وحدة ومناصرة وتأييد، وذلك بسبب ما ساد هذا الجانب من تاريخنا من هنات

41 المرجع نفسه، ص 9-10.

42 أكرم ضياء الدين العمري، التراث والمعاصرة، سلسلة كتاب الأمة، رقم 10 (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، ط1، 1405هـ/1985م)، ص 36-37.

أو يكون لها تأثيرات محدودة الضرر في منعطف ما.. قد تكون لها تأثيرات حاسمة أو قاتلة في مرحلة أخرى؛ كما لفت انتباه الشيخ الغزالي نقص التاريخ الإسلامي من حيث الكم، فإن التاريخ المُدوّن والذي يُدرّس جله أو معظمه عن منطقة الشرق الأوسط، والمسلمون يشكلون خمس العالم تقريباً، فالمعروف أن شعوباً وأجناساً كثيرة قد أسلمت إلى جانب العرب كالفرس والترك والأكراد والهنود والزنج وأجيال من الصين والمغول واندونيسيا وماليزيا وجماعات غفيرة وأقليات أخرى في القارات الخمس، فأين التاريخ الإسلامي لهذه الشعوب والأقليات؟! ومن أين يمكن للدارس الوقوف على معرفة أسباب وظروف اعتناق هؤلاء للإسلام إلى جانب إحصاء الخدمات المختلفة التي قدمتها هذه الأجناس للحضارة الإسلامية؟ من هذه المنطلقات ونحوها يقتنع الشيخ الغزالي بمشروعية البواعث التي تحتم إعادة تدوين التاريخ الإسلامي من البدايات وإلى غاية القرن الخامس عشر الهجري؛ بيد أن هذا الخلل العلمي والمنهجي في منظور الشيخ الغزالي وإن كان متولداً عن أسباب داخلية أساساً، فالعالم الخارجي أيضاً له حضوره، فإن الغارة على العالم الإسلامي وموجات الغزو الفكري والثقافي المتلاحقة أسهمت في عدم تحقيق هذا الجهد والاتجاه بمنحاه صوب الغايات المنشودة والتطلعات المأمولة.⁴⁴

والذي نلاحظه هنا أن تحليل الشيخ الغزالي الذي يقترّب من حيث الاهتمام بدراسة بواعث الفعل التاريخي من منهج فلسفة التاريخ، له ما يدعمه من الواقع التاريخي والحضاري للأمة الإسلامية، ودونما حاجة للاتجاه لأي إسقاطات أو معايير خارج هذا النمط الحضاري فإن "الأمة الإسلامية لم يتكوّن تاريخها بعد أن صارت أمة تحمل صفة الإسلامية إلا بمجيء الإسلام وانتظامه لشعوبها ضمن إطاره العقيدي والحضاري"، لهذا فإن أي تفسير لتاريخها يستبعد الدين بوصفه منهجاً للتفسير أو إطاراً حاوياً لها محكوم عليه بالقصور الفاحش والفسل الذريع؛⁴⁵ لكن الحاجة القصوى لهذا المنهج عند الشيخ الغزالي لا تبررها أو تدفع إليها مقتضيات الدراسة النظرية فحسب، وإنما الأولى والأهم من ذلك عنده هو كيفية تحقيق الاستفادة العملية من وراء هذا المنهج بتطويع الثقافة التاريخية لخدمة ودعم وتنمية الأواصر والوشائج العاطفية

44 محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشروع والعقل، مرجع سابق، ص 105-106.

45 محمد مراح، "الدين وفلسفة التاريخ"، مجلة الحرس الوطني السعودية، العدد 161، شعبان 1416هـ/يناير

مواقعهم وأدوارهم داخل الكيان الإسلاميّ.

4 - إن حديث الشيخ الغزالي عن المرتكزات الثقافية للوحدة بين المسلمين جاء في سياق سنني، أي أن تخلف المسلمين ما هو إلا جانب من صورة تفريط المسلمين في هذه المرتكزات والمقومات وعدم إحلالها في الواقع العملي مكانها للائق بها، لأن هذه المرتكزات هي بمثابة الأعصاب المناسبة داخل الكيان الإسلامي، فهي تظهر ملامح شخصيته المعنويّة بقدر ما تجعل أجزائه متماسكة وجناته مترابطة.

5 - ينبغي على المسلمين كافة والعلماء والدعاة خاصة الاهتمام الفاعل بخدمة الدعوة الإسلاميّة وتطوير وسائلها وأدواتها بما في ذلك رعاية الأقليات المسلمة في كل مكان، وعدم التفريط ولو في مسلم واحد، فقد تأكد أن هذه الدعوة أحد أقوى عوامل الوحدة العاطفيّة والشعوريّة بين المسلمين.

6 - ضرورة العناية المستمرة بالثقافة الذاتيّة في أي مجتمع إسلاميّ وتفعيل مكانتها ودورها في عملية الاستنهاض الفكريّ والاجتماعيّ، والعمل على التمكن من صياغة منهج إسلاميّ لإعادة كتابة التاريخ الإسلاميّ، وجعل الثقافة التاريخيّة في خدمة المصالح العليا للأمة وصون مبدأ التناصر والتعاون في المتفق عليه، والتسامح أو العذر والتجاوز بالنسبة لما هو موطن اختلاف.

7 - إن ما يفهم من الجهود العلميّة والفكريّة التي قدمها الشيخ الغزاليّ في هذا المجال، أنه يدعو إلى الالتزام بتقنين المرتكزات الثقافيّة للأمة، ودعمها بضمانات مشتركة ثابتة من خلال ميثاق شرف يتعهد الجميع بإنفاذه بحماس وإخلاص.

8 - يؤمن الشيخ الغزاليّ بأن الفقه الإسلاميّ ثروة عقليّة وتشريعيّة ليس لها نظير في الإبداعات العقليّة والتنظيريّة للحضارات الأخرى، وأن من واجب كل المسلمين توقير واحترام هؤلاء الفقهاء المبدعين، غير أن التقليد والجمود على مذهب واحد لا يخدم الوحدة الثقافيّة للمسلمين، والأصوب هو الاستفادة من هذه الثروة الاجتهاديّة البديعة وتطوير ثمراتها لمواجهة التحديات وحل مشكلات العصر.⁴⁸

⁴⁸ يرى الشيخ الغزاليّ أن المتاجرة بالخلاف بخيانة عظمى لما في ذلك من مخاطر على وحدة المسلمين. انظر مشكلات في طريق الحياة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص 118-141.

